مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ١٩٧٤/١/١٤

مائة يوم بعد ٦ أكتوبر

اليوم

هو اليوم الاول بعد مائة يوم بالضبط على تلك الساعة المجيدة من ظهر يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

مائة يوم فقط ؟ نعم . وان كانت تبدو اطول من ذلك بكثير ، فذلك لكثرة الاحداث التى وقعت منذ ذلك اليوم وضخامتها ، ولتعدد الانفجارات التى ادت اليها ...

لقد كان قرار القتال الشجاع يوم ٦ اكتوبر ، والذى حمل اسم « الشرارة » هنا بمثابة الشرارة التى تشعل حريقا كبيرا ، أو كان بمثابة القنبلة التى تنفجر فى مخزن للقنابل فتنفجر سائر القنابل وتتطاير شظاياها على مساحة واسعة .

مثلا ...

● اعاد ٦ اكتوبر الى منطقة الشرق الاوسط الحساسة رائحة البارود بعد أن عملت قوى الاطفاء المحلية والعالمية طويلا لمحاولة اخماده وتحويل واقع التوسع الاسرائيلى الجديد الى واقع دائم يقابله العرب بالاستسلام فى كل شىء.. الا فى الكلمات ! .

● واعاد ٦ أكتوبر الى اذهان العالم أن عوامل الوحدة العربية أقوى بكثير من خلافات النظم والحكومات .. فمع الدم المصرى والسورى سالت دماء عربية أخرى . العراق لها رأى خاص ولكنها ارسلت قواتها المدرعة لتقاتل فى الجولان. وعلى جبهتى مصر وسوريا سالت دماء من الكويت ومن المغرب . وكانت هناك قوات جزائرية اساسية على الطريق وهى اليوم فى خطوط النار ومن لديه مال أو عتاد اسرع بتقديمه فى سخاء لانه ساعة أن يكون هناك قتال جاد ومنظم واستبسال حقيقى لا يمكن للشعوب العربية أن تقبل من حكامها باقل من ذلك .

● واستخدم العرب سلاح البترول بطريقة لم تثبت أن فجرت فى العالم قضايا أخرى كانت كامنة : ازمة الطاقة العالمية ، اسعار هذه الطاقة ، النظام النقدى الدولى ، بل لقد طرحت على الدول المتقدمة اسئلة جوهرية حول معنى التقدم والمزايا والمضار لمجتمعات الاستهلاك المرتفع التى صارت تسمى « حضارة » الاستهلاك . وجعلت مفكرى الغرب المترف يفكرون فيما لم يفكروا فيه قبل ذلك قط مثل نوع الحياة الجديدة وصورة المستقبل وعلاقات الدول الصناعية بالدول غير الصناعية ...

● وطرحت المعارك القتالية ذاتها اسئلة جوهرية على الفكر العسكرى فى العالم ، وعلاقته بمعنى الامن بين الدول، بعد أن ظهرت اساليب فى الحرب جديدة ، وتبين أن درجة استهلاك الاسلحة والذخائر فى أول حرب حديثة مزودة بأسلحة تصويب بالغة الدقة قد ارتفعت ارتفاعا مخيفا لا تقوى على مواجهة ترسانات دول كانت تعتبر دولا كبرى . فما استهلك من دبابات فى معارك سيناء والجولان لاتقوى على مواجهته ترسانات دول مثل انجلترا وفرنسا والمانيا الغربية .

● وفى اللحظات الحرجة من القتال، والجسور الجوية المحملة بالسلاح تتدفق من روسيا وأمريكا الى الاطراف المتقاتلة، تمرضت سياسة الوفاق الدولى لاخطر امتحاناتها . وتطايرت الانباء . عن انذار سوفيتى بالتدخل ، ردت عليه أمريكا باعلان حالة الطوارىء فى انحاء العالم . واذا كانت التجربة قد اثبتت ان استهلاك الوفاق مازالت مفتوحة وقادرة على تفادى المواجهة العالمية ، الا انها اثبتت ايضا أن الوفاق محدود بحدود ضرورات الصراع المحلية حيثما توجد ازمات محلية متصارعة ، وحيثما يوجد ظلم يريد أصحابه أن يردوه .

● وقد ادى هذا كله الى أزمة فى العالم الغربى لم يسبق لها مثيل منذ الحرب العالمية الثانية .

فقد وجدت أوروبا نفسها ـ عسكريا ـ تطرح شتى الاسئلة عن قدرتها الدفاعية الذاتية ازاء معدل استهلاك السلاح فى الحروب الحديثة وتقدم نوعيتها . و ـ سياسيا ـ تطرح اسئلة أخرى عن

قرارات تتخذ في واشنطن دون استئذانها رغم أنها واقعة في الوسط وبين الاقدام.

اذا تفاقم الصراع . و ـ اقتصاديا ـ عن الفرق بين مصالحها في السلع الاستراتيجية كالبترول الذي تستوردمنه ٨٥٪ من حاجتها ومصالح أمريكا التي تستورد ١٥٪ فقط ...

هكذا ، مرت المائة يوم الاولى ، وكأن كل قنبلة موقوتة طال تجاهلها تنفجر ، ثم لايلبث انفجارها أن يفجر قنبلة أخرى مجاورة ، حتى بات العالم كله يوقن بأن الغد لن يكون كالامس أبدا ، وكل دولة في العالم تطرح سؤالا اساسيا ، حول مشكلة أو أخرى ، يقول : ما العمل ؟ .. وصار المفكرون يبحثون فيما لايقل عن « نظام عالمي جديد » ...

□

ولكن ، ومن بين هذا كله ، ماذا كان الموقف بيننا وبين اسرائيل خلال هذه الايام المائة ؟

أن الحرب لم تنته بعد . تلك هي الحقيقة الجوهرية التي يجب أن تستقر في ذهن القريب والبعيد . وبالتالي فقد كانت هذه المائة يوم ، مائة يوممن « الاستنزاف المتبادل » : عسكريا ، وسياسيا ، واعلاميا .

● عسكريا ، لاشك أن استمرار حالة الحرب تمثل درجة من الاستنزاف لاى مجتمع وأى دولة في العالم .ولكننا في هذه المائة يوم كنا في وضع يختلف من هذه الزاوية ـ تماما عن الوضع السابق على ٦ أكتوبر .

قبل ٦ أكتوبر نجحت اسرائيل في أن تقلل نفقات احتلالها لاراضيها الى الحد الادنى ، بل كادت تعود الى حالتها الطبيعية من حيث درجة العمالة والانتاج في الداخل ، بالاضافة الى استفادتها من اليد العاملة العربية الرخيصة في الاراضي المحتلة ، والى الاستثمارات المتدفقة عليها كدولةمنتصرة الى مالانهاية وبدون ذرة من شك . هذا في حين كنا نحن ندفع ثمن الحرب كاملا سنة بعد سنة . أما في الوضع الراهن بعد ٦ أكتوبر ، فقد ترددت الاستثمارات المتدفقة على اسرائيل أو بدأت تذهب للجهد الحربي،واضطرت اسرائيل بعد نكستها العسكرية وازاء الخطر الماثل ان تحتفظ بحالة التعبئة الشاملة تقريبا بما يضعه عليها هذا من عبء كبير ، الى جانب الاستنزاف البشري المتمثل في قتلاها وجرحاها في خطوط وقف اطلاق النار المتداخلة الجديدة بعد حرب ٦ أكتوبر، لايحميها مجرى القناة ولا يريح بالها خط بارليف .

ولذلك يجب ان نجعل العالم ، والاطراف المعنية بالذات ، تفهم اننا أقل قلقا من استمرار الموقف الراهن من اسرائيل ، بل وأننا نحرص عليه حتى نحقق الاهداف التي قامت من اجلها الحرب.

● سياسيا ، نجد أن ثمة استنزافا حقيقيا تتعرضت له اسرائيل في نسيجها الداخلي . فجيشها ظهر جيشا كغيره من الجيوش فيه الثغرات ، والخلافات، والقادة الذين يحالون الى التحقيق ، وانه قابل للهزيمة ، وليس ورقة مطلقة كاسحة في أى مساومة سياسية أو مستقبل مستقر . ونتائج الانتخابات الاخيرة عند التحليل الدقيق لاتنم عن ميل الرأى العام الاسرائيلي الى التشدد بقدر ما تنم عن قلقه وحيرته وعودته الى طرح اسئلة حول الاجابات التي كان يأخذها كبديهيات . وامتد هذا بالطبع

الى اليهودية العالمية والى اصدقاء اسرائيل فى كل مكان . ولعل النفس الاسرائيلية لم تتعرض قبل ذلك قط لهذا التناقض الحاد بينما يوحدها من احساس بالخطر وبين ما يفرقها وهو الشك فى حكمة سياستها التى سارت عليها منذ قامت فى مواجهة العرب واسلوبها فى تحقيق اهدافها ضدهم .

وفى نفس الوقت ، كانت اسرائيل طوال هذه المائة يوم ، تحاول أن تستنزف العرب سياسيا مستعينة بسلاحها القديم وهو عنصر الزمن : فى تأليب قوى عالمية ضدنا بسبب البترول مثلا ، وفى انتظار بروز الخلافات العربية ، وهو مايهمها فى الدرجة الاولى .

واذا كان لامفر من أن نأخذ من اسرائيل ذاتها عبرة . فلنذكر انها منذ ١٩٦٧ تحكم بحكومة من عدة احزاب تختلف اراؤها حول الحل المقترح ، وقد سئلت جولدا مائير مرة عن ذلك فقالت : لقد قلنا لانفسنا اننا فعلا مختلفون ، ولكن اذا كان الحل بعيدا . فلماذا نختلف ونتقسم من الان ، فلنؤجل ذلك الى وقته !

فلماذا لايؤجل العرب «ذلك الى وقته» ونهاية الصراع مازالت بعيدة ؟ ..

اننا لا نطلب أن يتوقف النقاش العلنى بين الاتجاهات المختلفة فى العالم العربى . لاننا نعتبر أن اخفاء هذا النقاش يولد من الشكوك والعقد ماهو اكثر ضررا . ولاننا نريد ان تتعود جماهير الامة العربية على جو النقاش والجدل الصحى ، بدلا من حبس الابخرة فى قماقمها حتى تنفجر أو الالتفاف حول الحقائق حتى تتوه . ولكن على أن لاينسى هذا النقاش أن الحرب قائمة . والمواجهة طويلة .

وان القوى المؤهلة لان تكون فى ساحة الصراع هى التى تغير الواقع الذى نتناقش فيه ، ونريد أن نتطور به .

والصمت يستنزف النفس العربية تماما كما يستنزفها النقاش غير المسئول ، الذى يستخدم اسلحة التخوين والتشكيك ، وينسى ما يجب ان نتفق عليه فى كل مرحلة

● أما اعلاميا ، فاننى دائما افهم الاعلام على أنه جزء من سياسة ، وليس ضجيجا دعائيا غير مدروس ...

وفى هذا المجال ، نجد أن اسرائيل ، بعد أن افاقت من الصدمة ، عادت تدير اجهزتها الاعلامية على مستوى العالم ، فى محاولة لاخفاء الصدع الحاد فى اسطورتها السابقة ، بتصوير انجازاتنا العسكرية ضدها وكأنها محض مصادفة لاتتكرر . وهى هنا تركز على نقطتين .

النقطة الاولى ، محاولة تبرير نكستها بالمفاجأة وحدها . وتقدم فى هذا مفهوما معينا للمفاجأة . والواقع أن هناك نوعين من المفاجأة ، وهذا ما يجب ان نوضحه للعالم .

مفاجأة من نوع غزو المانيا للنرويج مثلا فى الحرب العالمية ، حيث كانت النرويج ابعد ما تكون عن فكرة الحرب أو مفاجأة بيرل هاربر حين هاجمت اليابان الاسطول الامريكى فى المحيط الهادى بينما كان سفيرها يتباحث فى الخارجية الامريكية حول أمور سلمية تماما .

ومفاجأة هى جزء من العمل العسكرى والوطنى كمفاجأة ٦ أكتوبر . فهنا نجد دولة فى حالة حرب معنا ، ولاتكف عن اقامة الحصون والاستحكامات وشراء

الاسلحة والتجسس علينا جوا .وأمامها طرف اراضيه محتله وهدف تحرير هذه الاراضى بالقوة هدفمعلن . ولكن براعة التخطيط السياسى والعسكرى ، فى تضليل العدو ، وابقائه حتى الايام الاخيرة حائرا فى تفسير معنى تحركات قواتنا . هذا نوع آخر من المفاجاة العسكرية يدخلفى صلب القتال وفنونه، بل وهو جزء حتمى من اصغر تفاصيل المعارك خلال القتال ذاته .

كانت المفاجاة لاسرائيل من هذا النوع اننا حاربنا وأن قواتنا نجحت ، ضد كل حساباتها العسكرية ، فى العبور بجيشين كاملين ، فى اقل من ٤٨ ساعة وفى احتلال وتدمير خط بارليف باكمله وفى خطط عسكرية تفصيلية ابرزها استخدام المشاة ضد الدبابات . ومفاجاة الجندى المصرى الجديد والضابط المصرى الجديد .

مفاجآت ليست بنت الصدفة ولكنها بنت الدراسة والتخليط والتدريب والاستبسال ...

● النقطة الثانية فى دعايتها انه لو ترك لها الوقت لدمرت جيوشسوريا ومصر ولكن وقف اطلاق النار حال دون ذلك ...

وهذا ضد كل المعلومات الامريكية ذاتها بأن اسرائيل فقدت فى الاسبوع الاول ثلث طيرانها ومدرعاتها . وأنه لولا الانقاذ الامريكى الذى جاء بعد رجاء تليفونى من جولدامائير الى نيكسون مباشرة ، لنفدت اسلحتها وذخيرتها . واقوال الاسرى، والاسلحة التىاستولينا عليها ، تثبت أن الطائرات والمدرعات جاءت جوا من امريكا الى سيناء لانقاذ اسرائيل ...

حتى عملية الاختراق الاسرائيلى فى الدفرسوار كانت جزءا من هذا الانقاذ ولم يجعله ممكنا الا العون الامريكى الكثيف فى الايام الاخيرة . وحتى الان يعتبره الخبراء العسكريون عملية سياسية قصد بها سبق وقف اطلاق النار اكثر مما هو عملية عسكرية .

وهذا كله يحتاج الى مئات الردود . وهى قد بدأت فعلا فى تزويدكل المراسلين الاجانب بقصتها الملونة لمصلحتها عن هذه الاحداث ...

..ولتكن المائة يوم الثانية استنزافا لها عسكريا وسياسيا واقتصاديا واعلاميا . فهذه الايام ليست منعزلة عن ايام القتال ذاته من حيث تأثيرها على النتائج البعيدة للقتال .

أحمد بهاء الدين